قراءة

لاورا كاسيييس كيف ننظر إلى تاريخنا الاستعماري؟

«رمالٌ» في الذاكرة الإسبانية

تُوجّه الكاتبةُ الإسبانية كتابها «رملٌ في العيون»، الصادر حديثاً، إلى الذين يعتقدون أنّ الاستعمار الإسباني أقلّ سوءاً من نظيريه الفرنسي أو البريطاني، في محاولة لنفض الغبار عن طبقات التاريخ غير المعروف للمستعمرات الإسبانية في شمال أفريقيا

جعفر العلوني

ثمّة كتبٌ جيدة وهامّة من حيث الموضوعات التي تتناولها، وكتب أُخرى جيدة وهامّة وضرورية في الوقت نفسه. هذا هو حال كتاب «رملٌ في العيون»، الصادر حديثاً عن دار «K.o» للصحافية والشاعرة والمفكّرة الإسبانية لاورا كاسيييس. للوهلة الأُولى، قد يبدو عنوان الكتاب شعرياً، لكن ما إن نقرأ عنوانه الفرعي «ذاكرة وصمت المستعمرات الإسبانية في المغرب والصحراء الغربية»، حتى ندرك الموضوع الهامّ الذي تتناوله الباحثة عبر 405 صفحات، تتعمّق خلالها في خبايا المستعمَرات الإسبانية، بعد عملية بحث وسفر ورحلات إلى العرائش وسيدي إفني والعيون وتطوان وغيرها من المدن، وتروي التاريخ غير المعروف لتلك المستعمرات في ذلك الجزء من شمال أفريقيا، مُعالجةً قضية واضحة هي التاريخ الاستعماري لإسبانيا طوال قرن ونصف القرن.

بأسلوب صارم وسردية بعيدة عن التحفّظ، تصف الباحثة تلك الفترة التاريخية بأنها ظلّت «مشّوهة ومخفية»، متحدّثة عن ضررٍ لم يُصلح أو لم يُعترف به حتى الآن، حيث تقول: «ها نحن الآن في عام 2024، ونستمرّ في تجاهل بعضنا البعض. إنّ عدم فهم الاستعمار الإسباني في المغرب والصحراء الغربية يعني أنّنا لم نفهم حتى الحرب الأهلية الإسبانية أو الدكتاتورية أو حتى المرحلة الانتقالية». تؤكّد الكاتبة، في صفحات كتابها، أنّ النظرة الإسبانية تُجاه المغرب والصحراء الغربية، منذ القرن التاسع عشر، لطالما تغذّت على التفاهمات والالتفافات الخطابية، إضافة إلى انعدام الثقة والوطنية ومشاعر الحنين. ضمن هذا المعنى تهزّ الكاتبة تلك الخطابات الأكثر تكراراً وتواجهها بشهادات متواضعة، ناقلة الأُطر التاريخية ومفكّكةً الأوهام الاستشراقية وزيف الحرب. وفي نهاية المطاف تخلص إلى فكرة ستكون حاضرة في فصول الكتاب كلّها؛ وهي أنّ النظرة الإسبانية للمغرب والصحراء الغربية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين هي نظرة استعمارية بالكامل.

تربط كاسيييس الحاضر بالماضي، عبر هذا الموضوع الذي تقول إنّه ليس مألوفاً للإسبان عموماً، حيث القسم الأكبر لا يعرف شيئاً عن تلك الفترة المشوّهة من التاريخ الاستعماري لإسبانيا، «لأنّ أحداً لم يخبرنا عنها لا في المدرسة، ولا في الجامعة، ولا حتى في وسائل الإعلام. كذلك تم تجاهلها بشكل كامل في مجلس النوّاب». وهنا تُراجع الكاتبة المفاهيم المشوّهة والتي تختلط على الكثير من الإسبان بسبب الجهل أو التعتيم أو التلاعب بالرأي العام، كما تتوقّف عند بعض النقاط التي لا تزال غامضة بالنسبة إلى الإسبان وتشرحها مثل: رأس جوبي؛ وهو المنطقة المعروفة باسم مدينة طرفاية التي تقع على الساحل الجنوب الغربي للمغرب، على ساحل المحيط الأطلسي، شمالي مدينة العيون، والتي خضعت للاستعمار الإسباني في الفترة الممتدّة بين 1916 و1985، و«معاهدة واد راس» بين المغرب وإسبانيا التي تمّ توقيعها في السادس والعشرين من نيسان/ أبريل عام 1860 في تطوان، وكانت نهاية لحرب تطوان التي فرضت فيها إسبانيا على المغرب الكثير من التنازلات أهمّها توسيع نفوذها في سبتة ومليلة، والحصول على فوائد مالية. كما تتوقّف عند شخصية القائد عبد الكريم الخطّابي لتطرح سؤالاً مفاده: لماذا لم تعترف المغرب به بطلا حتى الآن؟ إضافة إلى قضايا الفوسفات في الصحراء الغربية، وترسيخ المستعمرات في العصر الراهن وتحويل بعض المدن في شمال أفريقيا إلى مدن إسبانية أكثر من ألباسيتي أو كوينكا، تمثيلاً لا حصراً.

رسم يمثّل «معاهدة واد راس» عام 1860 للفنّان الإسباني خواكين دومينغيز بيكر (1870)

ولا تتوقّف الكاتبة عند هذا الحد، بل تقفز إلى الحاضر رابطة بين استعمار الماضي، وما تسمّيه ما بعد الاستعمار، حيث تثير موضوع مجزرة حدثت في الثالث والعشرين من حزيران/ يونيو 2022، عندما حاول أكثر من 1600 مهاجر القفز فوق الحاجز العبور الحدود إلى مليلية، وكانت النتيجة موت ما يقرب ثلاثين شخصاً. وتستطرد، في هذا الإطار، شارحةً ما تسمّيه استمرار منهجية المحو والتعتيم والطمس، سواء من قبل اليمين سابقاً، أو اليسار حالياً، وهذا ما تجلّى بشكل واضح باتفاقية رئيس الحكومة الإسباني بيدرو سانشيز مع المغرب، متخلّياً عن الصحراويّين مرّة أُخرى.

> جزءٌ كبير من الإسبان لا يعرف شيئاً عن تاريخهم الاستعماري

> نحو أُطر نظرية وتاريخية مختلفة تناسب الذاكرة الإسبانية

وتوضح الكاتبة أنّ الشعب الإسباني بغالبيته يعيش حتى الآن مع فكرة أنّ الاستعمار الإسباني للمغرب والصحراء الغربية كانت له روح مختلفة عن استعمار جيرانهم الأوروبيّين، لا سيّما فرنسا وإيطاليا وبريطانيا، وأنّه لم يكن هناك فصل بين السكّان المحليّين وسكّان المستعمرات، وأنّ المستعمرين لم يمارسوا عمليات العنف كما حصل في عمليات استعمارية بريطانية أو فرنسية مثلاً، كما يعتقد الإسبان أنّ وجود المستعمرات كان استناداً إلى إرادة محلّية تسعى إلى تطوير المغرب بشكل عام، ناهيك عن ارتباط الذاكرة الإسبانية حول تلك المستعمرات بمشاعر البطولة والأساطير والحنين إلى الزمن الجميل.

وتُعبّر الكاتبة عن الحاجة في إسبانيا إلى أطر نظرية وتاريخية مختلفة، ذلك أنّ أطر ما بعد الاستعمار الأنكلوسكسونية أو الفرنسية لا تُناسب الذاكرة الإسبانية، لا سيما في ظلّ التطوّرات السياسية والاجتماعية والثقافية والمعرفية. لذلك تدعو الكاتبة إلى ضرورة الحوار، ومن هنا تعتمد في أفكارها واستنتاجاتها على كثير من المحادثات مع مؤرّخين وكتاب مغاربة وصحراويّين مثل محمد المرابطي وباهية محمود حمادي. توضّح لاورا كاسيييس أنّها كتبت هذا العمل بشكل أساسي من أجل أولئك الذي يعتقدون أنّ الاستعمار الإسباني في شمال أفريقيا كان أقلّ سوءاً من غيره من الاستعمارات، وأولئك الذين يعتقدون أنَّ «مستعمرات - مستعمرات» إسبانية، بالمعنى الدقيق للكلمة، لم تكن موجودة. ولكنّها تُوضّح أيضاً أنّه كتاب من أجل أولئك الذين يعرفون أنّ ذلك ليس صحيحاً.

ربّما من هنا يمكن فهم عنوان الكتاب، وفهم مقدّمته الشعرية، التي تضيء كثيراً على فحواه، وعلى الغبار المتراكم على طبقات تاريخ قائم على الاستعمار، كلّما أزلنا الغبار عن طبقة، اكتشفنا حقائق جديدة: «قبل بضعة أشهر، في آذار/ مارس تقريباً، ‹غزت› عاصفة رملية مدريد، والأخبار. لم يكن ممكناً رؤية أيّ شيء. تسرّبت الرمال من الصحراء إلى شقوق الأبواب وشكّلت كثباناً صغيرة. هل يمكن أن تكون تلك الرمال القادمة من الجنوب قد سافرت من المغرب إلينا لتجبرنا على النظر وعدم النسيان؟».

بطاقة

Laura Casielles كاتبة وشاعرة إسبانية من مواليد أستورياس عام 1986. حاصلة على إجازة في الصحافة من «جامعة كامبلوتنسي» وماجستير في الدارسات العربية والإسلامية المُعاصرة من «جامعة أوتونوما». صدر لها في الشعر: «الجندي الذي يهرب» (2008)، و«تاريخ موجز لبعض الأشياء» (2017)، و«الآثار التي تتركها الخرائط» (2019)، وفي الدراسات: «رمل في العيون» (2024/ الغلاف). حازت «الجائزة الوطنية لشعر الشباب» في إسبانيا عام 2011.

مع غزّة

يوسف الناصر

أصوات المَدافع أعلى لكنّ صوتَ الفنّ هو الأبقى

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أيام العدوان على غزّة وكيف أثّر على إنتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يودّ مشاركته مع القرّاء

باريس ـ **العربي الجديد**

يوسف الناصر

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوانِ إبادةٍ على غزّة؟

أبحث عن وسيلة لردّ الاعتبار لنفسي وإنسانيّتي، وإلى نفوس الضحايا من الفلسطينيّين ورفع الأذى عنهم.

■ كيف أثّر العدوان على حياتك اليومية والإبداعية؟

تغيّرت تفاصيل ووقائع أيامي والكثير من شؤون حياتي. صرتُ أشعر بألم شديد وأكاد أختنق من الغيظ الذي يعتمل في روحي. روتين عملي الفنّي وطُرُق ممارسته لم تعُد كما هي.

■ إلى أيّ درجة تشعر أن العمل الإبداعي ممكنٌ وفعّال في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟

يعلّمنا تاريخُ الفنّ أنّ أصوات المَدافع أعلى دائماً، لكنّ صوتَ الفنّ هو الأبقى. يحتاج الفنّ إلى بناء وتأسيسٍ طويل الأمد وتراكُم وتجديد، لكنّي حاولت في معرضي الذي انتهى في باريس قبل أيام؛ أن أُمارس فعلاً مباشراً ضدّ الجريمة النازية التي تجري وقائعُها الآن بحقّ الفلسطينيين الأبرياء، رسمتُ وقائع الألم اليومي وأسميتُ التجربة «الرسم من المسافة صفر».

■ لو قُيّض لك البدء من جديد، هل ستختار المجال الإبداعي أو مجالاً آخر، كالعمل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟

ما زلتُ في خضمّ العمل الإنساني والنضالي، ولم أتوقّف يوماً. لا أدري ما الذي سيحدث إذا بدأنا من جديد. قد أكون حارساً في حديقة أو ساعي بريد أو فلّاحاً، سنُقرّر ذلك عندما نعود إلى البداية.

■ ما هو التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

أن يُحرق الله كلّ السفلة في العالم، وكلّ الأنذال والعدوانيّين والذين لا رحمة أو حُبّ في قلوبهم.

■ شخصية إبداعية مقاوِمة من الماضي تودّ لقاءها، وماذا ستقول لها؟

غسّان كنفاني... سأقول له: تعال انظُر ما الذي فعله النازيون.

■ كلمة تقولها للناس في غزّة؟

أنتم الأبقى، الحياة لكم.

■ كلمة تقولها للإنسان العربي في كلّ مكان؟

صحّ النوم!

■ حين سُئلت الطفلة الجريحة دارين البيّاع التي فقدت معظم أفراد عائلتها في العدوان، ماذا تريدين من العالم، أجابت «رسالتي للناس إذا بيحبوا دارين يكتبوا لي رسالة أو أي إشي».. ماذا تقول لدارين ولأطفال فلسطين؟

أنا اكتب لكم، منذ شبابي المبكر وإلى اليوم.

> روتين عملي الفنّي وطُرُق ممارسته لم تعُد كما كانت قبل العدوان

بطاقة

تشكيلي عراقي من مواليد عام 1952، حاصلٌ على البكالوريوس في الرسم من «أكاديمية الفنون الجميلة» في بغداد وماجستير في الفنّ من «جامعة مدلسكس» في لندن. أقام بين عامَي 1977 و2024 قرابة ثلاثة وعشرين معرضاً تشكيلياً في عدّة بلدان عربية وأوروبية. أسّس «جمعية الفنّانين العراقيّين» في بريطانيا عام 1993، و«غاليري أرك» في لندن عام 1997. في 2003، وخلال الغزو الأميركي للعراق، بدأ مشروعاً بعنوان «المطر الأسود»، اهتمّ فيه بتوثيق جرائم الحروب ومعاناة الضحايا. وضمن هذا المشروع يندرج معرضه الأخير في باريس «الرسم من المسافة صفر»، الذي خصّصه لحرب الإبادة الصهيونية في غزّة.

إضاءة

المعرفة التاريخية في دائرة السؤال الأخلاقي

الذكاء الاصطناعي والذاكرة الثقافية

تُركّز الأبحاث على الأبعاد الأخلاقية، كما لو أنّها نابعة من التخوّف من تحوّل الذاكرة الثقافية إلى ذاكرة آلية بالمعنى الحقيقي للكلمة

زهير سوكاح

في سنة 2023، طرحت مجلّة Memory Studies Review المُتخصّصة في دراسات الذاكرة سؤالًا مفتوحًا حول إمكانية أن يكون الذكاء الاصطناعي هو المستقبل المحتمل للذاكرة الثقافية، حيث شهد عالمنا المُعاصر تحوّلًا هائلًا نحو رقمنة المعلومات واستخدام الذكاء الاصطناعي في جميع مناحي الحياة الانسانية التي تمكن معاينتها حتى ضمن مجال الذاكرة، سواء في بُعديها الفردي أو الجمعي. ويبدو أنّ لهذا التحوّل آثاراً عميقة على الذاكرات الثقافية من خلال قدرة الذكاء الاصطناعي غير المسبوقة على جمع وتنظيم كمّيات هائلة من البيانات الضخمة ومعالجتها وإنشاء سجلّات رقمية وتخزينها لوقت الحاجة؛ فعلى سبيل المثال، جرى في الولايات المتّحدة، عقب جائحة كورونا، اللجوء إلى الذكاء الاصطناعي لإنشاء نصب تذكاري افتراضي لضحايا الوباء. ونظرًا لكون جمْع صور جميع الضحايا كان شبه مستحيل، فقد جرى استخدم الذكاء الاصطناعي في مشروع واعد لإنشاء صور تمثيلية لكلّ ضحية بناءً على بياناتها الشخصية المتاحة.

وفي هذا السياق، يتطلّع المؤرّخ وولف كانستينر إلى ظهور ما يسمّيه GPThistory، على غرار برنامج الذكاء الاصطناعي الشهير GPT، ليصبح في نظره مُساعدًا فعليًا لإنتاج المعرفة التاريخية. وهذا ما يجعلنا نتساءل: إلى أيّ مدى يُمكن لأدوات الذكاء الاصطناعي المستجدّة والتعلّم الآلي الواعد أن تساعد العلوم الإنسانية والاجتماعية في التغلّب على بعض الثغرات المنهجية التي تُواجهها هذه العلوم عند محاولتها فهم ظواهر الذاكرة الاجتماعية والثقافية واستكشاف دينامياتها؟

ومع ذلك، فمن المهمّ استخدام هذه الأدوات بمسؤولية والاعتراف بحدودها، لا سيما تجاه مجال الخصوصية الفردية؛ ذلك أنّ الذكاء الاصطناعي والتعلّم الآلي يتعلّمان من البيانات التي يجرى تدريبهما عليها. وإذا كان جزء من هذه البيانات مُعيبة سياسيًا أو أخلاقيًا، فقد يُؤدّي هذا إلى التوصّل أيضًا بنتائج مُضلّلة. وهنا يتّضح أيضًا حجم التحدّيات الأخلاقية التي تُثيرها التطوّرات الحالية والمتسارعة للذكاء الاصطناعي في مجال الذاكرة الثقافية. لذا، فليس من المستغرب أنّ عددًا كبيرًا من الأبحاث قد ركّز على هذه الأبعاد الأخلاقية، كما لو أنّها نابعة من التخوّف من تحوّل الذاكرة الثقافية إلى ذاكرة خوارزمية أو آلية بالمعنى الحقيقي وليس المجازي للكلمة.

وبشكل عام، يُمكن للذكاء الاصطناعي أن يلعب دورًا مهمًّا في الحفاظ على الذاكرات الثقافية للشعوب وتعزيزها، كما يُتوقع في السنوات القادمة القليلة. لكن في نفس الوقت، يتعيّن أن نكون على دراية بالتحدّيات الأخلاقية الحالية والقادمة لاستخدام الذكاء الاصطناعي في هذا المجال، حيث إنّ أدواته تُستخدم أيضًا لتشويه الذاكرة الثقافية من خلال التركيز على محتويات ذاكرية معيّنة دون غيرها، أو من خلال التحيّز الثقافي، الذي يُعتبر حاليًا من أكبر مُشكلات الذكاء الاصطناعي؛ فذاكرة الذكاء الاصطناعي تظلّ، رغم كلّ شيء، غير كاملة وغير متوازنة، وذلك لأنّ البيانات التي يجرى استخدامها لتدريب أنظمة الذكاء الاصطناعي لها زمنها ومكانها المخصوصان بها. وكلّما رجعنا إلى الماضي أو ذهبنا إلى مناطق فقيرة البيانات في العالم، قلّت البيانات المتاحة لتدريب هذه الأنظمة. وبعبارة أُخرى، فأنظمة الذكاء الاصطناعي ما هي إلّا انعكاس للبيانات التي يجرى تدريبها عليها، وإذا كانت هذه البيانات غير متوازنة، فإنّ النظام الناتج سيكون أيضًا غير متوازن.

> من المهمّ استخدام هذه الأدوات بمسؤولية والاعتراف بحدودها

كلُّ هذه التعقيدات تطرح على الساحة الفكرية والثقافية مجموعة من الأسئلة المفتوحة التي لا تزال قيد البحث والدراسة. ومن بين هذه الأسئلة: هل ظهور الذكاء الاصطناعي واستخداماته الاجتماعية والثقافية ستُغيّر طبيعة وعمل الذاكرة الثقافية والثقافة ذاتها؟ وبالتالي: هل الذكاء الاصطناعي مؤشّر على الذاكرة الثقافية أم مُنْتِج لها؟ أمّا السؤال الأكثر إلحاحًا بالنظر إلى سياقنا العربي الجمعي: هل تمتلك الذاكرات الثقافية العربية المرونة الكافية للتكيّف مع التحوّلات السريعة التي يفرضها الذكاء الاصطناعي وخوارزمياته المتطوّرة، وذلك من خلال مؤسّساتها وأطرها الفكرية الحالية؟

(باحث مغربي مقيم في ألمانيا)

من معرض «هلوسة آلية» للفنّان التركي رفيق أناضول في سول، 2023

فعاليات

ابتداء من الرابع والعشرين من الشهر الجاري وعلى مدار شهر كامل، يحتضن «غاليري جانين ربيز» في بيروت معرض **البقاء أو الذهاب** للتشكيلية اللبنانية **داليا بعاصيري**. تتناول الفنّانة، في لوحاتها، المشاعر التي تنتابها منذ مغادرة بلدها عام 2020، وهي مشاعر تضعها أمام سؤال البقاء أو المغادرة.

نُزهات رياضية في الأندلس عنوان معرض يُقام حالياً في «البيت العربي» بقرطبة، ويستمرّ حتى التاسع عشر من تمّوز/ يوليو الجاري. يُضيء المعرض الخلفية الهندسية والرياضية لمَعالم الأندلس الأثرية في ثلاث مدن، هي قرطبة وإشبيلية وغرناطة، وذلك عبر مزج الفنّ والعِلم في لوحات تعكس التراث الأندلسي في فترات الخلافة الأموية وفترة الموحّدين والنصريِّين.

ابتداءً من الرابع والعشرين من الشهر الجاري، تعرض منصّة «أفلامنا» فيلم **ن وزيتون** (2015) للمُخرجة الفلسطينية **امتياز دياب**. يتناول الشريط (50 دقيقة) قصص الناس في فلسطين، حيث يلتقيهم مراد بسينماه المتنقّلة وهو يتجوّل من مكان إلى آخر، ليسرد قصصهم وقصّة المجتمع الفلسطيني وقصّة الاحتلال.

حتى السابع عشر من آب/ أغسطس المُقبل، يستمر في غاليري «مطافئ: مقرّ الفنانين» بالدوحة معرض **جيران البحر** للتشكيليَّين القطريَّين **وفيقة سلطان العيسى** و**حسن الملا**. يقدّم المعرض رؤية الفنّانَين وتفاعُل كلّ منهما بطريقته مع البيئة الثقافية المحلية، التي تُشكّل لهما نقطة التقاء وإلهام مشترك.